# الفصل الأول

## القدر بأبعاده المختلفة

## ١. معاني القدر لغة واصطلاحاً

القدر لغة: التقدير. يقال: "قدر الشيء" أي بيّن مقداره؛ و"قدّر الشيء بالشيء" أي قاسه به وجعله على مقداره؛ و"قدّر الأمر" دبّره، قضى وحكم به. ويرد بمعنى القوة والطاقة أيضاً. وعندما تنتقل الكلمة إلى باب التفعيل: قدّر، يصبح معناها: حكم به، نفذ حكمه، قضى.

نجد من مجموع هذه المعاني أن القدر اصطلاحاً هو: ما قدّره الله سبحانه من القضاء وحكم به.

والآيات الجليلة الآتية تؤيد التعريف الوارد أعلاه:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام: ٥٩).

﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ۞ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾(يونس: ٤٩).

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(النمل: ٧٥).

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثارَهُم وَكُلَّ شيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(يس: ١٢).

﴿بَل هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۞ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾(البروج:٢١-٢٢).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(الملك: ٢٥-٢٦).

ويرد القضاء والقدر بمعنى واحد من جهة، إلاّ أن القدر -بمعنى آخر-

يعني كل ما قدّره الله سبحانه، أما القضاء فهو إنفاذ هذا التقدير، وأداء ما قُدِّرَ وإجراء حكمه.

والقدر تفويض كل شيء إلى الله تعالى أثناء وجوده العلمي وقبل أن يظهر إلى الوجود الخارجي. فالأشياء المهيأة لورود الوجود الخارجي وتحاول أن تأخذ مكانها في سلسلة الوجود، تُكتب في لوح المحو والإثبات الذي هو مستنسخات اللوح المحفوظ من قبل الملائكة الكرام ضمن علم الله المحيط بكل شيء.

فالقدر هو اقتران ما خلقه الله سبحانه بكسب الإنسان، أي أن الإنسان يباشر بعملٍ ما، فيؤدي بإرادته ذلك العمل، والله سبحانه يخلق بمشيئته ذلك العمل. وهكذا فالقدر هو تقدير الله سبحانه لوجود الأشياء بعلمه الأزلي والأبدي قبل وجودها وبعد وجودها؛ لذا فليس صحيحاً عدّ القدر عنواناً للعلم فحسب، إذ معنى القدر يسع فضلاً عن تقدير الأشياء وتعيينها بعلمه سبحانه، بصَرَهُ وسَمعَهُ وإرادَتهُ ومشيئته. وحيث إن الأمر هكذا، فإن إنكار القدر يعني إنكار جميع صفات الله ﷻ. ولهذا فإن كثيراً من المحققين تناولوا القدر ضمن بحثهم عن ألوهية الله ﷻ. فقالوا: لا داعي إلى بحث مستقل للقدر، لأن الضرورة تقتضي تناول القدر ضمن بحث الألوهية. إلاّ أننا لا نرى الأمر مثلهم، لأنه ربما يشمّ من هذا المفهوم -من جهة- عدم قبول القدر ضمن أركان الإيمان. لذا نقول: مثلما نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، كذلك نؤمن بالقدر. وذلك لئلا نكون قائلين بما يومئُ إلى إنكار القدر سواء أكان إجمالاً أو تفصيلاً أو بأي شكل من الأشكال. أما إذا أخذنا أصل المسألة بنظر الاعتبار نرى أن الإمام أحمد بن حنبل يقول: "القدر من القدرة". فمن ينكر القدر فإنه ينكر كثيراً من الأمور التي تخص الألوهية. أي تتزعزع عقيدة الألوهية وتتهاوى أنظمة الفكر وأسس المفاهيم.

ومن هنا فالقدر موضوع جليل، وقد ضلّ الذين لم يتناولوه ضمن مفاهيم أهل السنة والجماعة. وتدخل عقلانية "المعتزلة" وحتمية "الجبرية" ضمن هذه الضلالة.

## ٢. القدر الجبري المهيمن في الكون

إن الحاكم المهيمن على الكون كله هو القدر والتقدير والنظام والانسجام والتخطيط والميزان والاتزان. فالآيات الجليلة تعلّمنا بهذا القدر المنظّم في الكون:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۞ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۞ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾(الرعد: ٨-١٠).

﴿وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر: ٢١).

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(الرحمن: ٧).

نعم، إن القدر يسع الكون كله ويشمل كل ما فيه بحيث لا يمكن تصور أي شيء خارجه. فالله سبحانه، خالق الكون قد وضع في كل شيء بعلمه المحيط، ميزاناً واتزاناً ونظاماً وانتظاماً وقدراً معيناً.. من انفلاق الحب والنوى إلى انبعاث الربيع الزاهر، ومن تصوير الإنسان في الأرحام إلى ولادة النجوم في المجرات. بل إن جميع ما دوّنه العلماء المحققون في العالم كله، في مئات الألوف من كتبهم ما هو إلاّ ترجمة لهذا النظام والانتظام والتقدير الشامل المحيط.

إن القدر الحاكم على الكون يؤمن به القاصي والداني، العدو والولي، المؤمن المعتقد والمنكر العنيد، بل حتى "ماركس" (Karl Marx) عندما يتكلم عن "الحتمية" (Determinizm) إنما يبين هذا القدر الحاكم. وعلى الرغم من أن بعض علماء المسلمين يقرّون نوعاً من الحتمية كـ"ابن خلدون"، بل

يجعلونها شاملة على الحياة الاجتماعية أيضاً كما هو في "الحتمية التاريخية" في الغرب. فإننا ضمن مفهوم أهل السُّنة والجماعة نقيد هذه الحتمية بشروط معينة ولا نقرّها على إطلاقها، بل نقبلها مع تلك الشروط، علماً أننا نقرّ بوجود قدر حاكم مهيمن على كل شيء بما فيه الإرادة الإنسانية.

لا شك أننا عندما نقوم بمشروع بناء أو عمل ساعة، فإننا نبدأ أولاً بوضع تصميم وتخطيط بمواصفات معينة؛ فنبدأ نقدّر ونحسب كل ما يمكن أن يظهر في المستقبل ضمن هذه المواصفات سلفاً. فلئن كان هذا التخطيط والتصميم في بناء بسيط أو في آلة بسيطة، فكيف يمكن تصور هذه الأنظمة الدقيقة والتوازن الدقيق المحيّر للعقول بدءً من الذرات ووصولاً إلى الإنسان، دون تخطيط أو منهاج؟ ترى هل هذا النظام البديع المشاهد في الكون أقل شأناً من نظام البناء أو الساعة؟!

إن البذور والنَّوى ما هي إلاّ عُلَب مشحونة بالقدر، فلقد دُرجَ في البذرة كل ما تمضيه من صفحات حياتها بل حياة الشجرة كاملة مندرجة في تلك البذرة، حتى إذا ما ألقيت في التراب تنشق عن ألوف الأُلوف من أنواع النباتات والأشجار والأزاهير المتنوعة، على الرغم من تشابهها من حيث التركيب وتشكلها من المواد البسيطة نفسها. فكل بذرة تعرض أمام الأنظار وهي تنشق عما فصّل القدرُ على حجمها وقدره من لباس، أو تتشكل وفق الصورة العلمية والمعنوية التي وضعها لها القدر. فلو عمل ألوف من الخياطين، طوال سنين مديدة، لا يستطيعون أن يوفقوا حتى إلى خياطة لباس كامل لشجرة واحدة فقط. بينما الأشجار والنباتات جميعها تصنع لنفسها الملابس منذ الخلق. فلا مناص من تفويض هذا الفعل إلى القدر الحاكم. وإلاّ فكيف يمكن أن يوضّح هذا الأمر بغير القدر؟

تأمل في قصر الكون العظيم هذا! فالواقف أمام التلسكوب يرى الأبعاد الشاسعة على مسافة خمسة ملايين سنة ضوئية. يعني إذا انطفأ "نجم نابض"

فإنك لا تشاهد انطفاءه إلاّ بعد خمسة ملايين من السنين! أو لو أصبحتَ ضوءً وأردت الذهاب إلى هناك فإنك لا تبلغه إلاّ بعد خمسة ملايين من السنين! أفلا يدفع هذا الكون العظيم وهذا النظام الدقيق الإنسان إلى الإعجاب والحيرة؟

ومن جانب آخر نرى أن هذا العالم الواسع له علاقة وثيقة مع الإنسان هذا العالم الصغير وخليفة الله في الأرض، بحيث إن هذه العلاقة الوثيقة توضح التقدير المطلق والعلم المحيط لله الذي يمسك السموات والأرض بأدق نظام وأبدع ميزان وأروع تقدير وتدبير. فالتناسب الدقيق البيّن بين أعضاء الإنسان يمكن ملاحظته أيضاً في كل جزء من أجزاء الكون كذلك. وحقّاً ما قاله "جين" (Jean): "إن الذي وضع عالم الذرات وعالم الإنسان بل جميع العوالم وضعها وفق مقاييس هندسية دقيقة، فتشاهد هندسة حاكمة على الكون كله. أليست هذه الهندسة الحساسة الدقيقة الحاكمة على الكون كافية لإثبات الإله الأزلي الذي بنى الكون عليها".

ولنبسط المسألة حسب مدارك العوام:

لو كنتم على أهبة إنشاء بناء ولو كان بسيطاً، فلا شك أنكم ستراجعون أولاً من تثقون بدرايته في هذا الأمر وتسترشدون برأيه. ذلك لأن أي خطإ في في إرساء قواعد البناء -ولو كان طفيفاً- قد يؤدي إلى انهدام البناء فور إنشائه. لذا فإن تقدير حسابات البناء ضروري جدّاً. فهذا البناء البسيط يحتاج إلى تقدير وتصميم وتخطيط يلائمه، وأنتم لا تشرعون بالبناء إلاّ بعد إعداد وتهيئة الأوليات اللازمة، بل يجب أن تراعوا خطة الإعمار في البلدة التي أنتم فيها وتأخذوا بنظر الاعتبار موقع البناء وشكله الخارجي.. إلى آخره من الأمور الدقيقة التي يتطلبها البناء ولو كان بسيطاً، بينما الكون الواسع العظيم بحاجة إلى أدق الحسابات والمقاييس والتقدير. أوَ تريد مثالاً على ذلك؟

انظروا إلى قطعة تفاح تضعونها في فمكم، ولاحظوا العلاقة الدقيقة بينها

وبينكم؛ طعم التفاح وفمكم، الفيتامينات التي فيها وجسمكم، بل حتى ظل شجرته وحاجتكم إلى الظل، وحاجة شجرتها إلى ما تلفظونه من غاز ضار في الزفير، وقيامها بتنقية الهواء، ومن ثم شهيقكم وتنفسكم من هذا الهواء الصافي. وهكذا.. إلى مئات ومئات العلاقات الموجودة بيننا وبين التفاح -مثلاً-.. وما ذكرناه ليس إلاّ نتفاً منها.

فإن شئتم أن تأخذوا المسألة في دائرة ضيقة -كهذا المثال- أو إن شئتم أن تأخذوها في ميدان أوسع بين النجوم؛ فلا ترون إلاّ نظاماً بديعاً وتوازناً دقيقاً وتقديراً في كل شيء.

إن حيواناً منوياً لا يكذب قطعاً، لأنه يتحرك على وفق نظام وخطة معينة، فلو قال سأكون إنساناً، يكون إنساناً، فهو يتكلم بلسان الكروموسومات وبالوظيفة التي لا تخطئ لـــ(D.N.A) و (R.N.A) في توجيه الخلايا، لتكوين فم الإنسان وشفتيه وعينيه وأنفه وأذنيه وسيماه وكل ما فيه..

وواضح لدى الفلَكيين الفيزيائيين أيضاً الأبعاد الفضائية، ومعروف لديهم مسبقاً القوى المغناطيسية ومداها في تلك الأبعاد الهندسية الشاسعة وشدة القوى التي فيها. وقد ساعد اكتشاف الكمبيوترات على معرفة أن أي مخلوق في الكون إنما يُنظم وفق خطة معينة منذ خلقه.. وهذا الأمر جار من الذرات إلى المجرات. فلقد سُجّل وعُيّنَ كل شيء في اللوح المحفوظ.. وهذا ما نطلق عليه اسم "القدر".

ولعل من الأفضل أن نوضح المسألة أكثر..

إن ما ذكرناه -حتى الآن- هو حول القدر الجبري، أي القدر الذي لا يد للإنسان فيه، ولا دخل له فيه. فهذا القدر كوني، لا تؤخذ فيه إرادة الإنسان بنظر الاعتبار. فالله ﷻ يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ولا يُسأل عما يفعل؛ فهو القاهر الجبار. ورغم ما ينطوي عليه كل مخلوق من حكمة إلاّ أن هذه الحكمة ليست مقيدة، لأنه سبحانه وتعالى ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(البروج: ١٦). فالكرة

الأرضية منذ الخلق تدور حول نفسها وحول الشمس بسَوق من هذا القدر الجبري. فليس لأحد أن يقول لها: "قفي..". وكذا الشمس والقمر يتسابقان، وليس لأحد أن يمنعهما من هذا التسابق؛ لأن القدر الجبري هو المهيمن في هذا الجريان والتسابق.. فكل شيء خاضع اضطراراً لهذا القدر.

### ٣. القدر مسألة وجدانية

من الممكن إثبات وجود الله ﷻ، وكذا إثبات نبوة الرسول الكريم ﷺ بدلائل علمية مختلفة، حتى أنه يمكننا إثبات البعث بعد الموت كذلك بدلائل علمية. إلاّ أن القدر ليس هكذا، فهو مسألة حالية وجدانية وليست مسألة علمية نظرية.

فالإنسان يؤمن بالقدَر بقدْر درجة إيمانه، ويدركه ويصدّقه بقدر سعة مداركه وعمقها. فكم من الناس أمضوْا حياتهم في مسائل عميقة إلاّ أنهم لم يستوعبوا أصغر مسألة من مسائل القدر، فهؤلاء غير محظوظين حقاً حيث لم يشغل القدر أي موضع في وجدانهم؛ فلا جرم أن يشفق عليهم الإنسان. ولكن الراضي بالضرر -بإرادته- لا يستحق النظر إليه بعين الإشفاق والعطف. فهؤلاء لم يتبينوا أن وراء أفعالهم وإجراءاتهم إجراءات الله وأفعاله سبحانه. فعيونهم مطموسة لا تبصر، ونظراتهم قاصرة على إدراك أن كل ما يفعلونه قد خُطط وصُمم مسبقاً بتقدير وتدبير علمي من قبل الله سبحانه. فهؤلاء يمضون حياتهم بسطحية إيمانية، ومن الصعوبة بمكان ألاّ يقعوا في مفاهيم اعتزالية.

### ٤. ما يُكسبه الإيمان بالقدر

إن الذي أحاط علماً بمسألة القدر وحلّ الأسرار التي تخصّه في وجدانه مرحلة تلو الأخرى كمن يحل العقد، يفوض في النهاية كل شيء إلى الله

سبحانه، حتى يبلغ فهم الآية الكريمة: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(الصافات: ٩٦).

نعم، إن الله سبحانه هو خالقنا وخالق أفعالنا؛ فأكلنا وشربنا ونومنا ويقظتنا وتفكرنا وكلامنا.. كل ذلك بخلق الله سبحانه. وفي الحقيقة أن كل ما يخص الخلق، فهو مخلوق من الله سبحانه قطعاً.. هكذا يرى "المنتهي" (صاحب الإيمان الواصل إلى أعماقه البعيدة) هذه الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار؛ وذلك بسلوكه الوجداني. وحيث إن الأمر هكذا فمن الصعوبة بمكان ألاّ يقع هذا الواصل في "الجبرية".

نعم إن الإنسان كلما أعطى الفعل لله تجاهه الإرادة (إرادته الجزئية) في النتيجة وتذكّره بالمسؤوليّة لئلاّ ترتفع عنه المسؤولية. ولكي لا يغتر الإنسان في الوقت نفسه بفعله الحسنات يعمل القدر عمله قائلاً له: "لا تغترّ، أنت لست الفاعل"، فينقذه من الغرور. وهكذا يبلغ الإنسان التوازن، وتنتظم حياته وسلوكه بالحفاظ على هذا التوازن.

إن جميع الحسنات ما هي إلاّ من فعل الله وتقديره. فلا يستطيع الإنسان أن يتملكها. وإلاّ يقع في شرك خفي، لأن الله سبحانه هو الذي يهب الحسنات مباشرة، إذ نفْس الإنسان الأمارة بالسوء لا تطلب الحسنات قطعاً. ومن المعلوم أن المقصود من الحسنات هنا تلك الحسنات التي هي بذاتها حسنة وجميلة، وإلاّ فلا نقبل ما تتوهمه النفس الأمارة من جميل وحسَن. نعم، إنّ النفس الشريرة مدفوعة بشرها إلى كراهية الجميل والجمال ومعاداتهما.

إن النفْس الأمّارة بالسوء تطلب السيئات، لذا فالمسؤولية تقع عليها.. فالآية الكريمة الآتية تجمع هذين الأساسين معاً وتوضّح الأمر جلياً: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(النساء: ٧٩). ومن هنا فليس لك أن تغترّ بحسناتك التي تعود إليك، لأن الحسنات ليست

لك بالذات، فكل ما هو حسَن وجميل إنما هو إحسانٌ من الله إليك؛ والإحسان يقتضي الشكر والتواضع، لا الغرور.

أما السيئات والذنوب فإن إرادتك الجزئية "شرط عادي" في خلقها؛ لذا تقع مسؤوليتها على النفس. ذلك لأنه تعالى خلق ما رغبت عمله ومالت إليه نفسك أو فكرت في القيام به، أو أي تصرف آخر في ميلك ورغبتك.

فهذه الأمور لا يمكن أن نفهمها إلاّ بالوجدان والحال. أي أن هناك شاهداً واحداً فقط على ما دار في خلدك من ميل أو أي تصرف في ذلك الميل، وهو الوجدان. فالله ﷻ اتخذ وجدانك شاهداً على علمه.

أما الإنسان "المبتدئ" فهو يؤمن أيضاً بالقدر، ولكنه ينظر الى الماضي والبلايا التي تصيبه من زاوية القدر، فيقول: "إن البلايا والمصائب النازلة هي من تقدير الله"، فينجو من اليأس. أما عندما ينظر إلى المستقبل والمعاصي فإنه ينظر إليها من زاوية الإرادة الجزئية، فيقول: "سَأُحَصّل ما قُدّر لي على كل حال"، فلا يرمي نفسه في أحضان الكسل، ولا يجعل القدر وسيلةَ تسلية تجاه ما نواه من السيئة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩).

نعم، إن الله سبحانه هو خالق كل شيء، من حسنات وسيئات، لأن الخلق يخصّه هو وحده، ولكن المسؤولية تقع على من أراد السيئة.. فهذا النمط من الإيمان هو أساس إيمان المبتدئ الذي لم يخض تجربة الإيمان بأعماقه البعيدة.

أما وراء هذا فلا يجوز الخوض فيه؛ أي لا يجوز للمبتدئ الخوض في مسألة القدر أكثر من هذا الحد وليس له أن يلوك مسائله الفرعية بلسانه؛ لأن القدر مزلّة الأقدام وهو مسألة دقيقة جداً. فقد كان الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يمنع طلابه من مناقشة مثل هذه المسائل. وعندما كان يُسأل: "وأنت لما ذا تتكلم فيه"، يجيب: "أتكلم خائفاً وكأن على رأسي الطير".

ويقصد به: إنكم عندما تتكلمون في القدر تقصدون الغلبة والظهور على خصمكم، ولهذا أمنعُكم عن الخوض فيه.

إن الدقة المتناهية في هذا الموضوع وحظر الخوض فيه لا يكدر صفاء منطقية المسألة التي بحثت. إذ لا يجوز الكلام كيفما اتفق في مثل هذه المسائل، ولاسيما مسألة القدر، إلاّ من كان حاذقاً ماهراً مهارة الصائغ وحذاقة الكيميائي.

### ٥. لا تضاد بين القدر والإرادة الجزئية

لا تناقض –من حيث الأساس– بين القدر وإرادة الإنسان، بل هما متكاتفان. فلئن كان دخول الإنسان بحسَناته الجنةَ وبسيئاته جهنم قضية، فهي قضية تعني بلسان القدر تصديق رب العالمين لها، ومن جانب آخر تأييده لإرادة الإنسان. بمعنى أن في الإنسان قوة تدفعه إلى الخيرات والحسنات والدخول في الجنة، أو بالعكس؛ أي فيه قوة تسوقه إلى السيئات والشرور والآثام فتُدخله جهنم. فهذه القوة تشكّل الأساس في التقدير، وما هي إلاّ الإرادة. ووجود هذه الإرادة لا ينافي التقديرالإلهي ولا يضاده.

وفي الحقيقة يمكننا أن نرى هذا في أفعالنا جميعًا. فمثلاً: إذا أردنا رفع أيدينا، فإننا نتمكن من ذلك إن لم يكن هناك عارض، ويمكننا كذلك أن نتكلم أيضاً عندما نريد ذلك، يعني أن قيامنا بأفعالنا يثبت وجود إرادة لدينا، فإن شئت أطلقت عليها الجزء الإختياري، أو المشيئة، أو الرغبة والطلب.. فالنتيجة لا تتغير بتغير الأسماء، إذ وجود الإرادة –التي لا نعرف ماهيتها– واضح وضوح الشمس.

أما إذا نظرنا إلى المسألة من حيث التقدير الإلهي، فنرى كأن الله سبحانه يقول للإنسان: "إنني أعلم أنك ستستعمل إرادتك في هذا الوقت في الفعل المعيّن، ولهذا أقدّر لك هذا الفعل بهذا الشكل". وهذا يعني أنه تعالى لا يحجر على إرادة الإنسان.

نعم، إن الله سبحانه هو خالق كل شيء. ولما كان عليماً بالأُمور كلها، فإنه يوجّه تقديره إلى حيث تتوجه إرادة الإنسان. بمعنى أن القدر لا يحول القدر بين الإنسان وإرادته، غير أنه يحيط بإرادة الإنسان، أي يعلمها وعلمه بها لا يعني تقديرها مسبقًا.

## ٦. القدر نوع من العلم الإلهي

القدر هو ما فصّله الله سبحانه -في علمه- من تخطيط وتنظيم وتصميم للأشياء. والعلم بالشيء لا يعني إيجاده، إذ لو عرفت تصميم ألف بناء وحفظت خطة عمل لمئات المصانع، فلا يأتي بعلمك هذا أي شيء للوجود، بمجرد ما في حافظتك من تصميم وتخطيط. إذ لإيجاد تلك المباني والمصانع لا بد من إرادة وقدرة. وبخلافه فذلك التخطيط والتصميم ليس إلا علم يخصك وحدك. فأنت تدور فيه خيالاً، وأي عارض في خيالك يؤدي إلى ذهاب تلك البنايات والمصانع، حتى إذا ما ضعفت المخيلة وجفت ينابيعها تصبح كأن لم يدر فيها شيءٌ قط من المعرفة والتصميم والتخطيط.

ونقول أيضاً: إن القدر من نوع العلم، والعلم تابع للمعلوم دائماً؛ أي على أيّ كيفية يكون المعلوم، كذلك يحيط به العلم. وليس المعلوم تابعاً للعلم. وحيث إن الأمر هكذا فإن الله سبحانه يعلم ما سنعمل وكيف نعمل بإرادتنا، ويضع تقديره على وفق علمه. فعلمُه محيط بكل شيء؛ بل التعبير بـــ"أن هذا الشيء يعود إلى علمه" سوء أدب مع الله؛ إذ لا شيء خارج علمه، وإنما نستعمل هذا التعبير لتقريب المسألة إلى العقل وبقصد التوضيح.

لنفكر -مثلاً- في قطار يقطع المسافة بين محطتين معلومتين بزمن معلوم. فهذه نتيجة محسوبة ومحسومة وهي معلومة قبل حركة القطار بكثير. وتطبع هذه المعلومات في قوائم ولوحات أحياناً. فالنتيجة المعلومة هذه عبارة عن تخطيط وتصميم. والآن إذا ما قسنا المثال على مسألتنا نقول: "إن هذه

النتيجة هو القدر". إلاّ أن هناك أمراً وهو أن هذه المعلومات التي لدينا ليست قوة جبرية تدفع القطار إلى الحركة؛ بمعنى أن القطار لا يسير إلى المحطة المعنية لأن هذه الخطة مرسومة ومصممة، وإنما لأن القطار سيكون في تلك المواعيد في تلك المحطات حسب تصميم هذه الخطة، أي في قَدَر القطار يُسجّل هكذا، حيث إن العلم تابع للمعلوم. فكيفما يكن الشيء يكن العلم به، ويوضع التقدير بحقه وفق ذلك العلم.

إن علم الله سبحانه يطل من الأعلى، ينظر في آن واحد إلى كل ما حدث ويحدث وما سيحدث كأنه حادث الآن. فالسبب والنتيجة، والعلة والمعلول، والبداية والنهاية، مندمجة كلها في علمه، منحصرة كلها في نقطة واحدة بلا زمان ولا مكان. ولهذا فليس هناك أول وآخر، وقبلُ وبعدُ. أي أن علم الله سبحانه محيط بكل شيء من جميع جهاته. فهو سبحانه يقدّر تقديره وفق هذا العلم المحيط. ولهذا فهذا التقدير قد حسب حساب إرادة الإنسان في الأفعال الإرادية ولا يخرجها من حسابه، أي لا يبطلها.

إن أفعال الإنسان محفوظة كلها مسبقاً في اللوح المحفوظ، وأن ما قُدّر له بعد ذلك وعُلّق على عنقه هو ما استُنسخ من هذا اللوح المحفوظ، كما هو واضح في الآية الكريمة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾(الإسراء: ١٣).

نعم إن كل ما سيفعله الإنسان قد كُتب مسبقاً، وإنما هو بأفعاله يضع ما كُتب في حقه موضع التنفيذ. وإن هذا القدر المكتوب هو ما عُلم بعلم الله من أفعال سيفعلها، أي معلومة مسبقاً. وهذا العلم ليس قوة تجبره على الفعل. وإذا ما قورن الكتاب المعلق على عنق الإنسان مع ما يسجله الملائكة من أفعاله، يشاهَد أن الإنسان لم يفعل سوى ما كُتب له بحذافيره. والله سبحانه سيُقرئ الإنسان هذا الكتاب ويحاسبه وفق ذلك.

وبهذه المناسبة أريد أن أشير إلى ما يأتي:

إن الذين يزاولون مسائل الروح مزاولة جادة يقولون: "إن الروح قرين

الجسد، يعني إن مع البدن المثالي هناك جهة ثانية للإنسان فيها ما يخص حياته من تقدير وتعيين؛ لذا يمكن معرفة ما هو مقدّر للإنسان -إلى حدّ ما - عندما يكون الإطلاع كاملاً على ماهية روحه ووظيفته".

هذا وإن المشتغلين بـــ"علم القيافة" (أي المعاني التي تفيدها الجهة المادية للإنسان كالخطوط الموجودة في كفه) يرون: أن هذه الأمور تعني انعكاسات للقدر على جسم الإنسان. أي يمكنهم أن يعرفوا ما سيقع على الإنسان من أحداث ولو بشكل جزئي. حتى إن الذين وُهبوا بصيرة نفّاذة وفراسة قوية يستطيعون أن يحدسوا بعض مقدرات الإنسان المستقبلية بمجرد النظر إلى سيماه. وهذه الأمور ليست معرفة بالغيب، لأنهم يعتقدون أن الأسرار التي تخص القدر قد وضعت على شكل إشارات وعلامات في جسم الإنسان. وحتى لو كانت هذه الإشارات غيبية بالنسبة للجاهلين بهذا العلم؛ فإن الغيب بالمعنى الحقيقي لا يُحصر في هذه المعلومات. بمعنى أن ما أوردناه لا يُعارض حكمَ "لا يعلم الغيب إلاّ الله". إذ إن محاولة معرفة القدر من الإشارات والعلامات الموضوعة في جسم الإنسان كان علماً موجوداً حتى في عصر النبوة، وكان يسمى العالم به (القائف). والرسول ﷺ لم ينكر هذه المعرفة، بل قد أحضر قائفاً وأطلعه على أسامة وأبيه زيد بن حارثة رضي الله عنهما وهما مضطجعان، وغطاهما الرسول ﷺ وأقدامهما بادية من الغطاء، حيث كان أسامة أبيض البشرة بخلاف والده، ولهذا دار اللغط حولهما.

"عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ قائف والنبيُّ ﷺ شاهدٌ وأسامةُ بن زيد وزيدُ بن حارثةَ مُضْطَجعان فقال: إن هذه الأقدامَ بعضُها من بعضٍ. قال فسُرَّ بذلك النبيُّ ﷺ وأعجَبَه فأخبر به عائشةَ".[1]

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي ١٧.

## ٧. وظيفة الإرادة

إننا لا ننظر إلى إرادة الإنسان على أنَّ لها وجوداً؛ وهذا ما يعتقده أهل السنة والجماعة الذين يمثلون معظم عقيدة الأمة. فنحن نعتقد أن كل عضو من أعضائنا موجود فعلاً ومخلوق بخلق الله له. فمثلاً: لي رأس، فهو موجود، وقد خُلق من قبل الله. ولي أنف وهذا أيضاً مخلوق من قبل الله. ولي رجلان، ولي ذراعان، ولي عينان وهكذا جميع الجوارح والأعضاء خلقت من قبل الله تعالى. أما الإرادة فلا يمكننا أن نعبّر عنها بنفس العبارة. نعم، إن لنا إرادة، وهذا صحيح، ولكن ليس لها وجود خارجي فهي ليست مخلوقة، ولهذا لا يمكننا أن ننظر إلى إرادتنا أنها موجودة. فالأشياء غير الموجودة هي التي لم تُخلق، إلاّ أنها معلومة في علم الله سبحانه؛ أي أن لها وجوداً علمياً، ولكن لم تتعلق بها الإرادة والقدرة الإلهيتان. ولو كان الأمر خلاف هذا النظر؛ أي لو كان للإرادة وجود خارجي -كما لأعضائنا- فالأمر يؤول إلى الجبر. فلو كانت إرادتنا مخلوقة كخلقة أعضائنا حيث إننا لم نخيّر ونُسْأل في ذلك؛ فما كان لفعل من أفعالنا أية مسؤولية، وما كان لأحد أن يطلب ثواباً على حسناته، إذ لم يكن له بدّ من ذلك، فلا خيار له بين الحسنات والسيئات. علماً أن الأمر ليس هكذا. فإرادة الإنسان إذن لم تخلق بذاتها خلقاً، ولم توجد إيجاداً، بل أعطي لها وجود اعتباري، كما للخطوط الهندسية وجود اعتباري وفرضي. فإرادة الإنسان وجزؤه الاختياري لهما وجود اعتباري فرضي، أي لا يمكن أن يقاس أو يوزن وجود مثل هذا بأي مقياس أو ميزان. وهكذا فالإرادة تملك وجوداً نسبياً إضافياً لا وزن له ولا ثقل، إلاّ أنها شرط عادي لإجراءات الله في خلقه، وعندما يفعل الإنسان ما يخصّه -ميلاً أو تصرفاً- فإن الله سبحانه يخلق له الأداة التي تمكنه من أداء الفعل الذي يريد. ومن هنا فالإرادة كسبت أهمية عظيمة لارتباطها بفعل الخلق -سواء بالميل أو التصرف-، بالرغم من أن هذا الميل أو التصرف ليس لهما وجود خارجي بالذات. ولنمثل لهذا الأمر بمثال:

ما نجده في أيدينا من مخطط وتصميم لبناء ما لا تأثير له بأي حال من الأحوال في إنشاء البناء. فلو حملتم خريطة البناء بتصميمها ومخططها ليل نهار ووضعتموهما نصب أعينكم، فلا يؤثران في إنجاز البناء، أي لا قيمة ولا أهمية للخريطة والتصميم من هذه الناحية. ولكن ما إن تباشروا فعل البناء، فالتصميم والمخطط يحوزا الأهمية؛ لأن فعل البناء لا يمكن إلاّ بوجود ذلك المخطط. فإرادة الإنسان شبيهة بهذا المخطط والتصميم -خارطة البناء- فهي عبارة عن خطوط افتراضية. وما نعبّر عنه بـــ"الجزء الاختياري" أو "الإرادة الجزئية" هما مسمى هذا المخطط أو الخطوط الافتراضية. أما تحقيق هذا المخطط فعلاً وإيجاده، فهو بخلق الله سبحانه له. ومما يلاحظ أن خلق الله يجري وفق هذا المخطط. وفي الحقيقة أن منبع المسؤولية مناط بهذه الإرادة.

وعلى الرغم من أن إرادتنا ليست لها قيمة أو أهمية تذكر، لأن الله سبحانه هو خالق أفعالنا فهو يفعل فعله وفق هذا المخطط تحت ستار الأسباب والمسبَّبات... فالحسنات التي أصبحنا سبباً لخلقها سنكافأ عليها، والسيئات نعاقب عليها. ومن هنا يشاهد أن نتائج عظيمة وذات أهمية تستند إلى هذه الإرادة التي هي فرضية، نظرية، وشرط عادي. لذا لا جبر على الإطلاق. بل جبر مشروط. فالخالق هو الله سبحانه، إلاّ أنه جعل إرادة الإنسان شرطاً عادياً لخلقه. فعلى الإنسان أن يفكر ملياً في هذه النقطة ويضع موازنة بين القدر والإرادة. وفي الحقيقة أننا ذكرنا إحدى المسائل المعضلة للقدر، لذا نحاول أن نوضح الموضوع ببعض الأمثلة:

هب أنكم لمستم زراً لِمَكِنَة كهرباء عظيمة، علماً أن غيركم قد هيأ هذه المكنة بنظام دقيق، بحيث إن مجرد مس زرها يجعل المكان كله غارقاً في النور. فالعمل الجزئي الذي قمتم به والنتيجة العظيمة التي ظهرت لا تشاهد بينها علاقة معقولة. فليست هناك علاقة معقولة بين السبب والنتيجة، كما هو الحال في معجزات الأنبياء.

ويمكن أن نقيس هذا بالأمور المتعلقة بعالمنا المادي، فانظر إن شئت إلى اللقمة التي تضعها في فمك وانظر إلى نتائجها في الجسم. فأنت تقول: "أكلت الطعام". ولكني أقول: "لا، لم نأكل الطعام وإنما الله سبحانه أطعمنا". وربما تقبل قولي هذا من قبيل التقدير والاحترام، إلاّ أننا إذا دققنا في المسألة نجد أن قولي هو الصحيح. كيف ذلك؟ فلننظر:

إننا نقرّب اللقمة إلى فمنا، فمَن الذي أعطانا إياها؟ وما المراحل التي مرت بها حتى أصبحت مستساغة للأكل؟ وكيف أصبحت الشمس لها طباخة؟ وما الشروط التي دفعت الأرض لتتهيأ لإخراجها هكذا؟.. وبماء مَنْ سقيتموها، وبهواء مَنْ جعلتموها تتنفس؟.. الخ من الاستفسارات..

ثم ما إن تقربوا اللقمة إلى الفم حتى تجري فيها العمليات، وأنتم لا علم لكم بها ولا دخل لكم فيها ولا خبر لكم عنها. فلو حاولتم إقامة تلك العمليات بأنفسكم وإحضار ما يؤكل بإرادتكم فلربما تنسون أموراً كثيرة وعمليات جليلة. فربما تعضون لسانكم وتدفعون طعاماً غير مهيأ إلى المعدة ومنها إلى الأمعاء.. بينما لقمة الطعام هذه حالما تدخل الفم، بل ولّما تدخل وإذا اللعاب يسيل من الغدد، فتلك الإفرازات تؤدي عمليات مهمة تختلف حسب نوع الطعام. فهي تفرز إفرازاتها وفق نوعية الطعام وكيفيته.. ولا شك أن وظيفة المعدة أعقد من هذا؛ فهي بدورها تؤدي وظيفتها على أتم وجه، ثم تتولى الأمر الإثني عشري وإفرازات البنكرياس والكبد... وهكذا تؤدي كل منها ما عليها من الوظائف، حتى أن الكبد وحدها تؤدي ما يقرب من ثلاثمائة وظيفة. فكل يؤدي ما عليه بصمت وسكون ودون صخب ولا ضجيج. حتى أننا لا نشعر به ولا نعلمه.. ثم تتسلم الأمعاء المهمة فتؤدي دورها على أفضل وجه، حيث الهضم والامتصاص بزغاباتها التي تنقل الغذاء المهضوم إلى الدم، وبجانب هذا تصفية المواد الضارة وطرحها إلى الخارج، والتي تتم في الكلية التي يتناوب العمل فيها بين الراحة وأداء الوظيفة، حيث تدع نصف عمالها عمالاً إحتياطيين والنصف الآخر في عمل دائب.

والآن وضعنا اللقمة في فمنا، فكل ما يجري عليها من عمليات من البداية إلى النهاية، لا دخل لنا فيه، حتى لو عرفناه معرفة تامة. فالله سبحانه وحده هو خالق جميع هذه الأفعال. لذا نكرر السؤال فنقول: أيّهما صحيح: "أكلتُ الطعام" أم "أطعمني الله سبحانه"؟ إلاّ أننا نسلك في تعابيرنا المسلك المجازي فنقول: "أكلنا الطعام"، إلاّ أننا إذا استعملنا الكلمة بمعناها الحقيقي علينا أن نقول: "أطعمنا الله سبحانه".

وهكذا إذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية نجد أنه لا فرق كثيراً بينها وبين أفعالنا التي نؤديها بإرادتنا. ولهذا شبّهنا المسألة -من جهة- بالمعجزة، حيث إن "وجه الشبه" بين المسألتين هو عدم وجود علاقة معقولة بين العلة والمعلول؛ أي عدم وجود تناسب العلية بينهما، وهذا نشبّهه بالآتي:

هناك نملة صغيرة بجانب قصر عظيم، فلو قال أحد: "إن هذا القصر بَنَتْه هذه النملة". هذا الكلام لا يمكن أن يُصدّق لمنافاته قاعدة "تناسب العلية". فالمعجزات التي أظهرها الأنبياء عليهم السلام هي من هذا القبيل، ولهذا تكون دليلاً على نبوتهم، أي نرى أنه لا يمكن صدور مثل هذه الخوارق من يد البشر؛ لذا نضطر إلى القول -وهو كذلك- أن هذه المعجزات تعطى لأولئك الرسل من قِبَل الله سبحانه. وبناء على هذه الأمور، فإن أفعالنا المبنية على إرادتنا الجزئية -وهي كخط فرضي- شبيهة بهذا الأمر.

فمثلاً: "انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين فقال رسول الله ﷺ أشهدوا".[1] وأصابع تلك اليد المباركة تتحول إلى عشر عيون يتفجر منها الماء: "قال أنس رضي الله عنه : فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه".[2] فكما لا يمكن إسناد هذه النتائج إلى ما يشبه السبب ظاهراً، كذلك لا يمكن إسناد جميع أفعالنا المبنية على إرادتنا إلى أنفسنا. فالفاعل في الحالتين هو الله

(١) مسلم، صفات المنافقين ٤٣-٤٧؛ البخاري، المناقب ٢٧.

(٢) البخاري، الوضوء ٣٢،٤٦، المناقب ٢٥، الاشربة ٣١؛ مسلم، الزهد ٧٤، فضائل ٤-٦.

سبحانه. ويذكّرنا هذا بالآية الكريمة: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(الصافات: ٩٦). والإيمان بهذه المسألة من ضروريات الدين. ورسولنا الكريم ﷺ قد أشار إلى هذه الضرورة، وشبّه الذين يزلّون إلى الفكر الاعتزالي بأنهم مجوس هذه الأمة. فقال: "إنَ لكل أمة مجوسًا ومجوسُ هذه الأمة الذين يقولون لاَ قدرَ".[1] ذلك لأنهم لا يسندون الخير والشر إلى الله سبحانه، أي أن العبد خالق لأفعاله.

كان يطلق تعبير "القدرية" في أول الأمر على القائلين بالجبر، ثم أُطلق على منكري القدر، وهو الموافق لمعنى الحديث الشريف. وهكذا وجد الاسم صاحبه الحقيقي. وفي الوقت الحاضر يطلق على مذهب المعتزلة الذي حافظ على مفهومه السابق مع فروق طفيفة.

وبجنب هذا هناك إنكار لإرادة الإنسان الذي هو مذهب الجبرية. وهذا الفكر أيضاً غير صائب، كما وضحنا بجلاء. أما مذهب أهل السنة فإنه يمثل الطريق الوسط المصون من الإفراط والتفريط والذي أخذ الحقيقة من الطرفين وهو أن الله خالق لأفعالنا، أما السائل والطالب فهو نحن، لذا تقع المسؤولية علينا.

### ٨. مشيئة الله وإرادة الإنسان

على الرغم من كون الإنسان صاحب اختيار وإرادة، فلله الخلق والأمر. فلا يحدث شيء قطعاً ولا يرد شيء إلى الوجود أصلاً ما لم يصدر الأمر منه تعالى. فلولا مشيئته لم يكن زمان ولا مكان؛ ولو لم يرد دوام ما أوجده لأصبح كل شيء هباءً منثوراً.

فهو الذي قلّد جواهر الوجود على جيد العدم، وهو الذي فتح أبواب السماء على ظلمات العدم، وهو الذي جعل الأكوان كلها كالكتاب

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٢/٨٦، ١٢٥، ٥/٤٠٦؛ ابن ماجة، مقدمة ١٠.

وكالمعرض ونوّرها ليُقرأ الكتاب ويُشاهد المعرض. فالعيون تتفجر بأمره، والسيول تجري بأمره، والجبال تتصدع وتسقط بأمره أحجاراً تتحول إلى تراب، بفتح صدره للبذور والنوى، والسهول والوديان تتسربل بحلل سندسية بأمره، حتى تغرى نظر الأرض والسماء، وتتحول الأرض من أقصاها إلى أقصاها جناناً وارفة بنسائم أوامره، فتشحن البساتين والحدائق بالثمار والفواكه، وتغرد الطيور والطويرات بأمره.. بل حتى يتكلم كل كائن حي وغير حي، كل بلسانه، حامداً، داعياً، سائلاً منه تعالى.

فهذا الكون الواسع الذي لا يُرى له ساحل، لا يمكن أن يدّعي أحدٌ تملكه، فما هذه الأرض بعظمتها، بأنهارها وسيولها وبحارها إلاّ قطرات من رحمته تعالى، وما جميع الموجودات الحية وغير الحية إلاّ ذرة من خزائن ثروته. فنعمه تعالى لا تعدّ ولا تحصى ولا تسعها الأرقام. فله وحده الشكر والحمد والمنة تجاه هذه النعم السابغة على الجميع. وله التصرف والتدبير الواسع المشاهد في كل جزء من أجزاء الكون والإنعامات التي أسبغها على كل موجود، وكذا له وحده جميع الحسنات والخيرات وجميع المباركات والفيوضات التي تحققت بعمل الإنسان. فإفراغ الطمأنينة إلى القلوب المؤمنة وإعطاء العلم والدراية لعقول روّاد الحقيقة، وإسباغ الأخلاق الفاضلة والحكمة السديدة عليهم، وهداية الرؤوس العاشقة للسجود له... يخصه وحده تعالى. وكل سعي وعمل لمن لا يعرف عنايته ولا يقدرها حق قدرها عبث وهباء، بل سراب زائل كل ما لا تضفى عليه عنايته تعالى. فالأعمال تتحول عبادات بالفكر في رضاه. والعبادات هذه تكبر وتتسع برعايته وصيانته لها. حتى تصبح وسيلة نجاة الذين كانوا السبب في إقامتها وأدائها. وبخلاف هذا لا يمكن الوصول إلى شيء ولا المرور على الصراط المستقيم، أي خلاف هذا خيال لا حقيقة له. "أنا الذي عملت كذا، أنا نظمت ذاك، أنا الذي وجهت فلان.." هذه الكلمات التي تنم عن الفخر والغرور، مزالق شيطانية حتى مجرد التفوه بها.

إنه الله العلي القدير يدفع أصغر الأشياء لإنجاز أعظم الوظائف، وهو الذي دمّر بنملة قصْر فرعون. إن راية ملكه ترفرف في كل زاوية من زوايا الكون. ويا خسارة من لا ينضوي تحت رايته، أدامها الله على رؤوسنا وأظلنا بظلها. نعم، إن الأرض والسماء تحت حكمه، ونحن بأيدينا وأرجلنا وبصرنا وسمعنا ولساننا وقلبنا ووجداننا... ملكه ﷻ. وما هذه الجوارح إلاّ قطع لحم في ملكه الواسع، فهي وسائل شاعرة صغيرة جداً.

فكما أن هذا كله له وحده سبحانه، فإن جميع ما يرد منه من ثمرات وفوائد تخصه وحده سبحانه؛ إذ كيف يمكننا أن نقول: "لساننا، فمنا، عيننا، أذننا.. لو لم يمنحنا ﷻ هذه الجوارح والمشاعر والحواس، ولو لم يرتّب ثمرات على هذه الحواس والمشاعر، كم كانت حصتنا من تلك الثمرات التي ندّعي تملكها؟. فالدنيا كلها بأمره تدور، والأرض كلها تمتلئ بجود كرمه وتفيض". لذا فإن إسناد الوجود إلى غيره تعالى "كفر ما بعده كفر" حتى أنه لا يغتفر؛ والتعامي عن يد إحسانه وراء كل إحسان شرك مشين.

فيا ذا الرحمة الواسعة التي يطمع فيها حتى الشيطان! ارفع الغشاوة عن أبصار الذين يقولون: "أنا.. أنا.." وأظهر تجلياتك للمستحسنين المعجبين أمام إجراءاتك وأفعالك، واملأ القلوب الخاوية بمعرفتك.

## ٩. القدر في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة

لا يكون تناول مسألة القدر موافقاً لمذهب السنة والجماعة ما لم تؤخذ في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة -التي سنذكرها- وإلاّ لا ننجو من الإنحراف إلى مفاهيم الاعتزال أو الجبر. ولهذا نحاول تحليل الآيات والأحاديث التي تتعلق بالموضوع في هذا القسم من البحث.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(الحديد: ٢٢).

نعم، إن كل شيء قد سُجّل قبل أن يكون، ولا يجري شيء إلاّ وفق ما سُجّل. إن الطريق المحمديّ يلزم هذا الاعتقاد. أما الانحرافات فهي زلاّت وضلالات حسب صغَرها وكبرها.

لقد ذكرنا الآيات الكريمة في مستهل الكتاب ونورد الآن بعضاً من الأحاديث الشريفة المفسّرة لها:

**١)** "يروي عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائق قبل أن يَخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. وعرشُه على الماء".[1]

والحقيقة أننا لا نعلم ما القياس أو الميزان الذي توزن به هذه الخمسون ألف سنة؛ ولربما يكون قياساً بزمان دنيانا خمسين ألف سنة أو خمسين مليون سنة، وربما هي كناية عن الكثرة، فلا نجزم بشيء. نعم، فلقد قُدّر وعُيّن كل شيء قبل أن تُخلق السموات والأرض وقبل خلق ثمرت الكون الإنسان بخمسين ألف سنة.

أما "الماء" الوارد في الحديث فربما هو "العماء"* وربما هو "الأثير". أي أن عرش الله كان على الأثير الذي هو أصل مادة أجزاء الذرة. وربما الموجودات كانت على شكل وجودات أثيرية. ولا علم لنا بأي شكل من الأشكال ولا/ ولن يمكننا ذلك، لأننا وأبانا آدم لم نكن موجودين بعدُ، بل الكون برمته لم يكن موجوداً.

**٢)** أودع عبادة بن الصامت أمانة "الإيمان بالقدر" ولده قائلاً: "يا بنيّ، إنك لن تجد طعم حقيقةِ الإيمان حتى تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئَك،

---

(١) مسلم، القدر ١٦.

* العماء: السحاب. وقد قيل أن ذلك (العمى) مقصور وليس ممدوداً. والعمى إذا كان مقصوراً فمعناه: لا شيء ثابت. لأنه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء. أي (كان قبل أن يخلق خلقه و لم يكن شيء غيره) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٢٤٠ هامش. (المترجم)

وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ أول ما خلق اللّه تعالى القلمَ، فقال له: اكتبْ فقال: ربِّ وماذا أكتبُ؟ قال: اكتب مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة". يا بنيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من مات على غير هذا فليس منِّي".[1]

**٣)** الحديث الذي يرويه عبد الله بن عباس له أهمية بالغة لموضوعنا "القدر" والذي يفسّر الآية المذكورة آنفاً.

"عن ابن عباس قال: كنتُ خلف النبي ﷺ يوما فقال: يا غلامُ، إني أعلمك كلمات، احفظِ اللهَ يحفظك، احفظِ اللهَ تجدْه تُجاهك. إذا سألت فاسأل اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعن باللهِ. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك بشيء إلا قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليكَ، رُفعت الأقلام وجَفّت الصحفُ".[2]

أي أعط أوامر الله حقها، كي تكون مرسِلاً إلى العالم الآخر ما ينفعك. وإذا ما سألت شيئاً فلا تسأل أحداً غير الله، ولا تتذلل لغيره تعالى، ولا تخضع لغيره ولا تراجع غيره، لأن الذي يحل مسألتك هو الله وحده. إذنْ فإذا طلبت فاطلب منه، فلو طلبت ممن تريد أن تطلب فالنتيجة تؤول إليه وحده فلا يقضي مسألتك إلاّ هو سبحانه؛ لذا لا تشتت جهدك سدًى بالوسائط والوسائل الموجودة بينك وبينه تعالى، بل ارفع جميع ما بينك وبينه تعالى وتوجه إليه بحوائجك. وافعل هذا قولاً وعملاً، واعلم أن جميع الوسائط عاجزة مثلك. فهو وحده سبحانه القادر على إنجاز ما تريده وتطلبه. فمقاليد السموات والأرض بيده، فلا مقدّر لشيء ولا معيّن له إلاّ هو. فهو الخالق وحده، وهو الذي يُضحك ويُبكي، يعزّ من يشاء ويذل من يشاء. بل حتى لو تسابق الناس جميعهم لينفعوك أو ليسعفوك

---

(١) أبو داود، السنة ١٦.

(٢) الترمذي، القيامة ٥٩؛ المسند لأحمد بن حنبل، ٢٩٣/١، ٣٠٣-٣٠٧.

وينقذوك مما أنت فيه من بلاء، فأعمالهم الحسنة جميعها ضمن تقديره جلّ وعلا. لأن القلم قد كتب ما كتب، فجفّت الصحف على ما كتب، أي لا يتغير ولا يتبدل ما كُتب فيها.

إن هذا الحديث الشريف "الذي هو من جوامع الكلم، يفهّم به الرسول الكريم ﷺ حَبْرَ الأمة وعلاّمتها عبدَ الله بن عباس أعمق مسائل القدر.

وهكذا يكون إدراك "المنتهِي" للقدر.

نعم، إن القدر مسألة وجدانية وحالية، يشعر بها كل إنسان بجميع هذه الحقائق المذكورة في وجدانه، بل يطفح بها. حتى يصح القول: إن موضوع القدر هو أكثر المسائل التي ركّز عليها الرسول الكريم ﷺ. والكتب الستة زاخرة بمثل هذه الأحاديث. فينبغي أن يُبحث موضوع القدر في ضوئها إذ يستحق هذا الموضوع أن يُبحث بحثاً مستفيضاً بل يلزم ذلك.

فالمجوس يعتقدون بوجود قوّتين متغايرتين، إحداها للخير والأخرى للشر. فهذا النمط من الإيمان يجعل الله ﷻ في صراع مع الشيطان، وعدم مداخلة أحدهما بفعل الآخر (حاشا). غير أن الإسلام على النقيض من هذه العقيدة كلياً، بل أعلن الجهاد على أمثال هذه الأفكار. نحن نؤمن بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له في ذاته وفي أفعاله، فلا رب سواه، يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا سلطان إلاّ هو، والقوة كلها بيده.

فهذه الحقيقة نفهمها من الذكر الوارد في السنة، الذي يُقرأ صباح مساء: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».[1]

فنحن نعتقد في ضوء هذا الحديث الشريف بتوحيد الأُلوهية وتوحيد الصفات الجليلة وتوحيد الأفعال الحكيمة. وتفويض كل أمر إلى الواحد الأحد قضية مهمة جداً في إيماننا بل يشكل لبّه وخلاصته.

---

(١) البخاري، التهجد ٢١، الأذان ١٥٥.

٤) ولننظر إلى المسألة في ضوء ما يرويه الإمام علي ﷺ:

"عن علي ﷺ كنا في جنازة في بَقِيع الغَرْقَدِ. فأتانا رسولُ الله ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ. فنكَّسَ فجعلَ ينكُتُ بمِخْصَرتِه ثم قال: "ما منكم منْ أحد ما مِنْ نفْسٍ مَنْفُوسة إلا وقد كَتب اللهُ مكانَها مِن الجنةِ والنار وإلا وقد كُتبتْ شَقيّةً أو سعيدةً" قال فقال رجلٌ: يا رسول الله! أفلا نَمْكُث على كتابنا، ونَدَعُ العَمَلَ؟ فقال: "مَن كان مِن أهل السَّعادةِ، فسيَصيرُ إلى عمَل أهل السعادة ومَنْ كان من أهل الشَّقاوة، فسَيَصيرُ إلى عمَل أهل الشَّقاوة" فقال "اعْمَلوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ،[1] أمّا أهلُ السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة. وأما أهل الشقاوة فييسَّرون لعمَل أهل الشقاوة". ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(الليل:٥-١٠)».[2]

نعم، فمن خُلق للجنّة فسيمتلئ قلبه بنشوة العبادة، وينفر نفوراً شديداً من النواهي، لذا يُيسّر له طريق المسجد ويُعسّر عليه طريق النواهي.

نعم اعملوا، فكل ميسّر لما خُلق له، فطريق الجنة يمر من المسجد واتباع الرسول ﷺ، والذي لم يسجد لله سجدة ولم يجعل قلبه ووجدانه مرآة عاكسة لأوامر خالقه تعالى لا يقال له أنه في طريق الجنة. أي إن كان الإنسان من أهل السعادة فهو في النتيجة يقوم بأعمال تؤهله للجنة، وإن كان من أهل الشقاوة من حيث النتيجة فيقوم بأعمال يستحق بها النار. ولهذا كان الرسول ﷺ يقرأ صباح مساء «اللهم أحسِنْ عاقبتَنا في الأمورِ كلّها وأجِرْنا من خِزْي الدنيا وعذاب الآخرة».[3] ونجد أنه ﷺ يورد آيات

---

(١) وفي رواية زيادة "لِما خُلق له".

(٢) مسلم، القدر ٦-٨. البخاري، تفسير (٩٢) ٧، القدر ٦، التوحيد ٥٤.

(٣) المسند لأحمد بن حنبل، ١٨١/٤.

من سورة الليل[1] دليلاً على قوله الكريم، مما يذكّرنا بالمعاني الجليلة الآتية:

إن من بذل ماله ونفسه في سبيل الله وضَحّى بما يملك في تلك السبيل يدخل دائرة التقوى وينتفع من قوانين الله، أي سيمتلئ قلبه بالتقوى والتوقير بل يطفح بهما، فيلتجئ إلى حمايته تعالى، ويعلم أن ملاذه هو الله ﷻ. أي إذا وثق الإنسان بالله في شؤونه كلها واعتمد عليه واستند إليه مصدّقاً بأسمائه الحسنى وكل ما هو معلوم بالضرورة من الإيمان، فالله سبحانه ييسّر له الصراط السوي ويبلغه الهدف كما يبلغ السيل الجاري إلى مصبّه. وهو بدوره يتلذذ بعمله في الصلاة والزكاة والحج والجهاد. حتى ينظر إليه من لا يدرك نشوة هذه الأمور إما بحيرة وإعجاب أو يقولون: إنه "مجنون". فتعجب الألسنة من عدم مبالاته بالموت ومن سخائه الفائق، بل حتى أعماله اليومية وتركه الأذواق الشخصية تعدّ من الخوارق. كل ذلك لأنه تعالى قد يسّر له السبيل إلى الأفضل.

ولكن بخلاف هذا، أي إذا أصبح الإنسان بخيلاً لا يبذل شيئاً ولا يعطي شيئاً لأحد، فليعلم أنه لا يُعطى لمن لا يعطي، فلو أعطى لأعطاه الله.. تُرى ماذا يعطيه الله سبحانه؟. يعطيه الحسنى.. العاقبة الحسنى. فمن لم يعطِ واستغنى، أي شعر في نفسه بوجوده واستغنى عن الله، بدلاً من الاعتماد عليه، أي اغتر بنفسه كقارون الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨) وعدّ الذهاب إلى المسجد رجعية مستحقراً أهله مكذباً بالحسنى، أي منكراً المسمى بتلك الأسماء وهو الله سبحانه، غير مصدق بالرسول الكريم ﷺ الذي هو بؤرة تجليات الأسماء الحسنى، غير مكترث بالقرآن الكريم الذي هو الترجمة الأزلية لتجليات الأسماء الحسنى. فيُيسّر هذا الإنسان للعسرى، وربما تكون له أحياناً حياة دينية كالصلاة والصوم، ولكن يؤديها ضجراً متكاسلاً غير راغب في مغادرة الفراش لصلاة الصبح، وبمرور

---

(١) انظر: الايات الكريمة (٥-١٠) منها.

الزمن يترك الجماعة والعبادة. بل قد يَرى نفسه كالمغشي عليه إذا ما وجد أمامه أمراً إلهياً فيزيغ بصره حتى يعمل بخلاف ما أُمر، فيسأم ويسخط لدى أقل تكليف إلهي، إذ هو مُيسّر للعسرى، مثلَه كمثل الصاعد إلى الجبل المرهق بحمل ثقيل، كما تصفه الآية الكريمة ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾(المدثر: ١٧).

نعم، هناك من يجد منجم الفحم ويبحث عنه دوماً، وآخر يجد منجم الفضة وآخر النحاس وآخر الذهب، وهناك الكثيرون يغرقون في مجاري المياه القذرة.

إن الذي ييسر الطريق هو حفظ القلب على صحته، والإلتزام بالصدق والتوجه التام إليه تعالى، والبذل في سبيله وانتظار الإستجابة منه تعالى والإيمان بالأسماء الحسنى وعدم الاستغناء عنه تعالى وعدم الإغترار بإرادته الشخصية الضعيفة وعلمه القليل، مع الاعتقاد بأن كل شيء منه تعالى مع التضحية بماله ونفسه في سبيله.. نعم! إن هذا مما ييسّر الطريق. وبخلاف هذا يعني جعل الطريق شاقاً صعباً لا يمكن اجتيازه.

وفي رواية «قام سراقة بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت أعمالنا التي نعمل أمأخوذون بها ثم الحافر خير فخير وشر فشر أو شئ قد سبقت به المقادير وجفت به الاقلام؟ قال رسول الله ﷺ: يا سراقة قد سبقت به المقادير وجفت به الأقلام. قال فعلى ما نعمل يا رسول الله؟ قال: اعمل يا سراقة فكل عامل ميسر لما خلق له، يا سراقة الآن تجهد".[1] وفي رواية "فقال رجل من القوم ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال يعمل كل قوم ما خلقوا له أهل الجنة بعمل أهل الجنة وأهل النار بعمل أهل النار. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أرأيت أعمالنا هذه أشيء نبتدعه أو شيء قد فرغ منه؟ قال على شيء قد فرغ منه. قال فالآن نجتهد في العبادة".[2]

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني، ١٤٤/٤.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني، ٣٢٦/٧.

فبعد هذا نجد الصحابة قد بَلَغوا في العبادة مبلغاً، حيث شمّروا عن ساق الجد، فَعَبَدوا الله ليلا نهارا، أي إنهم أدركوا أن الإنسان أيّما طريق سلكه وصل نهايته، بمعنى مَن سار وصل.

نعم، هكذا كان فَهْم الصحابة للقدر. فهذا الإيمان لا يدفع إلى الكسل بل إلى السعي المتواصل. حيث إنهم أدركوا أيّما طريق نسلكه فإن نتيجة ذلك الطريق، إذن قد قُدّرت لنا. فكانوا يسعون دائماً لبلوغ نهاية ذلك الطريق. إذاً فيا ويح من لا يكون في طريق المسجد، ويا ويح من لم يسجد لله سجدة ولم يسلك سبيل المؤمنين، ويقضي أوقاته وأعياده في المقاهي والملاهي والحانات. فطريقهم هذا طريق الضلال وينتهي إلى ﴿سَقَر﴾(المدثر: ٢٦-٣٠).

فحمداً لله حمداً كثيراً لما يسّر لنا طريق الإسلام ووضعنا في المساجد كما يضع الندى على الأوراق الطرية. وجعل قلوبنا مرآة عاكسة لأنوار القرآن الكريم شمس الشموس، وأنعم علينا بفضله وكرمه اتّباع رسوله الكريم ﷺ نسأله تعالى تمام النعمة ودوام النعمة والشكر على النعمة.

**٥)** يروي عبد الله بن عمرو بن العاص قال :«خرجَ علينا رَسُولُ الله ﷺ وفي يدهِ كتابان فقال: "أتَدْرون ما هذان الكتابان؟" فقلنا: لا يا رسولَ الله إلاّ أنْ تُخبرنا. فقال لِلذي في يدهِ اليُمنى: "هذا كتابٌ من رب العالمينَ فيه أسماءُ أهلِ الجنّة وأسماءُ آبائهِمْ وقبائلِهِمْ ثُم أُجملَ على آخرهِمْ فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقص منهم أبدا". ثُمَّ قال لِلذي في شِماله: "هذا كتابٌ من رب العالمينَ فيهِ أسماءُ أهلِ النَّارِ وأسماءُ آبائهم وقبائلهم ثُمَّ أُجملَ على آخرهِمْ فلا يُزاد فيهم ولا يُنقصُ منهم أبدا". فقال أصحابُهُ: ففِيمَ العمَلُ يا رسولَ الله إنْ كانَ أمرٌ قد فُرِغَ منه؟ فقال: "سَدِّدوا وقارِبُوا فإنَّ صاحبَ الجنَّةِ يُختَم لهُ بعمَل أهل الجنّةِ وإنْ عمِلَ أيَّ عمَلٍ، وإنَّ صاحبَ النَّارِ يُختم لـــه بعملِ أهلِ النـــارِ وإنْ عمِلَ أيَّ عملٍ". ثم قال رســـولُ الله ﷺ بيدَيْه فنَبذَهُما ثم

قال: "فرَغَ ربُّكم من العباد فريقٌ من الجنـــة وفريقٌ في السّعير".[1]

سأحاول توضيح هذه المسألة بحادثة عشتُها فعلاً:

كنت على رأس مَن أُحبه وهو يحتضر من مرض التشمع الكبدي الذي ألمّ به، فكان يتلوى من شدة الألم، وقد انتفخ لسانه بحيث لا يدور في فمه إلاَّ أنه كان يردد شيئاً، قربتُ أُذني إليه منصتاً فكأن قلبه يقول: "لا إله إلاَّ الله"، بدلاً من لسانه؛ إذ أمضى حياتَه بنـــزاهة وطُهر وكان في تلك الأثناء يعيش عيش الغرباء، وتعرّض في الغربة لمرض يحرزه مرتبة الشهادة، ولسان محبيه رطب بالدعاء له، وهم يحيطون به. فكأن الله سبحانه قد هيّأ له جميع الأسباب لإدخاله الجنة. إذ قد مَرِضَ في أثناء أدائه لفريضة الحج، وبعد عودته رقد في مستشفى "إزمير" قبل لقائه بأقربائه. إن فوزاً عظيماً كان ينتظره رغم أن ظاهره ينم عن أنه مظلوم. وأنا شخصياً أشهد على إيمانه من معرفتي بظاهر حاله، وعلى استعداد بالشهادة له يوم القيامة إن سمح لي ذلك. نعم، إن كان الشخص من أهل الجنة فالله سبحانه يختم أعماله بعمل أهل الجنة. بينما لو كان الأمر خلاف ذلك فالعاقبة تكون خلاف الأولى. حفظنا الله من خيبة العمل ورزقنا عمل أهل الجنة.. آمين.

لقد تطرقنا إلى إرادة الإنسان وخلق الله للأفعال. وفي الحقيقة أن الذي نطلق عليه "الإرادة" لا نعلم كنهها، بل كيفيتها مجهولة بالنسبة لنا، إذ هي موجودة وجوداً نسبياً إضافياً، ولكن هذه الإرادة أصبحت شرطاً عادياً لخلق الله سبحانه، لذا كسبت أهمية من هذه الجهة. ولكن ما وظائف الإرادة ودورها في الأفعال الصادرة من الإنسان؟ فهذا الأمر لم يُجزم به بأبعاده جزماً قاطعاً. بيد أن الذي نقرره هو: أن الله سبحانه يدخلنا الجنة بحسناتنا، ويسوقنا إلى النار –حفظنا الله منها– بسيئاتنا. فكما يكون الأبرار بإرادتهم أهلاً لدخول الجنة، يدخل الفجار بإرادتهم أيضاً جهنم، كما ورد في سورة الانفطار (الآية ١٣–١٤).

---

(١) الترمذي، القدر ٤٨؛ المسند لأحمد بن حنبل، ١٦٧/٢.

ولكن ما عَمَلُ الإنسان في هذه النقطة؟ وما مقدار مداخلته في الخير أو الشر؟ وما مقدار عدّه سبباً في الخلق حيث إن الله هو الخالق؟.. وأمثالها من الأمور والأسئلة نحيلها مضطرين إلى علاّم الغيوب جل وعلا.

ولكننا نقول: إن كتاباً قد سبق، وهذا الكتاب مَرّ بأشكال وأنماط مختلفة. إذ قد قُررت خطة عامة قبل خلق السموات والأرض، ثم استنسخت الخطط الخاصة بكل فرد من هذا الكتاب العام، وعُلّقت مقدرات الأفراد في أعناقهم. إننا لا يمكننا أن نفكر في أنفسنا وإرادتنا خارج الأشياء والحوادث، لذا عندما يُقال "القدر" فنحن موجودون فعلاً مع إرادتنا ورغباتنا في تلك الدائرة نتهاوى مع الأشياء والحوادث، حيث إن كل ما له علاقة بنا يأتي إلى الوجود ضمن الحوادث مرتبطاً بإرادتنا. فرغم أننا لا نستطيع أن نضع مقياساً لتلك الإرادة إلاّ أننا لا نشك قطعاً في وجودها.

فالقدَر هو نظر الله ﷻ إلى الأمور كلها -وبضمنها إرادتنا- بمنظر علوي ورؤيته البداية والنهاية كرؤيته الحال. والقدر بهذا المفهوم لا محل فيه لمفهوم الاعتزال ولا الجبر. بمعنى أنه معلوم ومقدر عنده سبحانه جميع الأفعال المتعلقة بإرادتنا كجميع الأفعال الأُخرى التي لا علاقة لها بإرادتنا. إلاّ أن الأفعال الإرادية -مهما كانت سعتها- قد أُخذت فيها بنظر الاعتبار الإرادة والميل، وقدّرت التقديرات الإلهية وفقها وعلى قدرها.

قلنا إن لله سبحانه كتابات متنوعة، فالأمور التي يسجلها قلمُ القدر في اللوح المحفوظ يستنسخها الملائكة المكرمون بأقلامهم. فهذه الكتب التي يكتبها الملائكة معلقة في عنق كل فرد. أي أن جميع أفعالهم -قبل القيام بها- وجميع تفاصيل حياتهم مكتوبة في هذا الكتاب. أين تنجز وكيف ومتى؟.. ومعلوم أن إرادة الإنسان ليست مفصولة عن هذه الكتابة بل في ضمنها. أي أن جميع الأفعال المكتوبة هناك ينجزها الإنسان بإرادته، ثم يسجل الملائكة الأفعال المنجزة،[1]

(١) انظر سوَر: الكهف: ٤٩؛ الجاثية: ٢٩؛ ق: ١٨؛ الإنفطار: ١١-١٢.

وستتطابق الكتابتان إذا ما قُورِنَتا. فالكتاب الذي كتبه العليم الخبير المحيط بـــ"علمه بكل شيء في الوجود" لا يتناقض حتماً مع الكتاب الذي كتبه الملائكة، حيث إنه قد كتب في الكتاب الأول كل ما سنفعله لأنه معلوم مُسبَقاً في العلم الإلهي. أما الكتاب الثاني فقد كتب في أثناء إنجازنا للفعل. فالكتابان مطابقان تماماً حتى في أصغر حرف. إننا نؤكد المسألة هكذا لئلا نكون سبباً إلى أي فهم غير مقصود من قِبَلنا.

لقد كتبتْ إحدى جهات هذه الكتابة على صورة ميثاق وعهدٍ أُخذ منا ونحن في عالم الأرواح وعالم المثال أو عالم الذرات، فنحن نشعر دوماً بانعكاسات هذه الكتابة في وجداننا. فلقد أراد الله سبحانه أن يقرر حكماً فوق الزمان. ونحن قد استجبنا بـــ﴿بَلَى﴾ لهذا الحكم، فالآية الكريمة توضح لنا الأمر:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

فإذن قد أخذ العهد من الإنسان، وهو ما زال في صلب آبائه، بل هو ما زال في حالة الجينات في كروموسوماتهم أو هو بعد يجول في عالم الأرواح ولّما يأت بعد إلى عالم الحيوانات المنوية أو عالم الذرات، وربما أُخذ الميثاق هذا في أثناء نـــزول المنى في الرحم وبداية تكوين الجنين بنفخ الملائكة. أي يمكن أن يكون أخذ الميثاق وهو في أحد المنازل التي لا بد أن يمر بها الإنسان، أو في كل منها، والشاهد على هذا هو وجدان الإنسان.

وتُلْمح الآية الكريمة بكلمة ﴿رَبُّكَ﴾ إلى معانٍ عديدة، منها: الذي يربيك، ويسوقك إلى الكمال، وأوجد من الأثير ذرات وجودك، وركب جزئياتك، ومنها مركباتك. وهو الذي خلق من الأم البيضة ومن الأب المني، وهيأ المكان الملائم لنموك ضمن مسيرك في ظلمات متعاقبة. حتى جعلك

تتنفس بهواء الأم في محيط لا هواء فيه، وغذّاك بغذائها، ويدفع فضلات وجودك بدمها، وهو الذي ساقك إلى مرتبة أعلى عليين بعد اجتيازك مراحل معينة، وجعل الحيوانات محصورة ضمن فطرتها. أما أنت فبتربيته جعلك تعرج إليه، وعمّر قلبك بالإيمان كي تكتمل مادةً ومعنى. ونوّر -بعملك الصالحات- ظاهرَك وباطنك، وهداك الصراط المستقيم الذي يوصلك إلى سيدنا محمد ﷺ، وضَمِنَ لك الانضواء تحت جناح تربيته، وفوق كل هذا أنعم عليك بالمضي بخطوات اتباعه وتربيته حتى أبلغك ذروة درجة الولاية... وهكذا يربيك خطوة خطوة، مُظْهِراً ربوبيته لك. فهو الرب الرحيم الذي أخذ منك ميثاقاً في بداية الأمر وأشهدك على نفسه أنه الرب.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أتشهدون أنني أنا الرب وليس غيري خالق هذه الأحوال والأمور المتداخلة، وليس غيري يقدر على موازنة هذه الأحداث بدايةً ونهاية، وليس غيري خالق هذا الإنسان -ساكن الجنة- من تراب كثيف وأودع فيه استعدادا يمكنه من التقدم على الملائكة.

بمعنى: أيها الناس! أُنظروا إلى أنفسكم من قمة رأسكم إلى أخمص قدمكم هل من خالق غيري يقْدر أن يخلقكم على هذه الصورة؟ هل لغيري قدرة على الخلق كقدرتي فيتدخل في الخلق؟ هل يقدر غيري أن يمنحكم هذا الكمال في الخلقة هذا التقويم الأحسن؟ فهلاّ نظرتم إلى ملامح وجوهكم حيث وضعت فيها من العلامات الفارقة ما تميزكم عن مليارات من البشر بينما الوجه لا يتجاوز قدر كف واحد؟ فمن يقدر أن يخلق هذه المعجزات؟ حتى بصمات الأصابع متميزة في مليارات من الناس... فمن يقدر على هذا التمييز والتفريق؟.. وهكذا بعد ما يذكّر الرّب سبحانه الناس أنه الرّب، يُشهدهم على هذه الربوبية قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾(الأعراف: ١٧٢) فأيّاً كان المخاطب بهذا السؤال، الروح، أو الذرات، أو المنيّ، أو الجنين في رحم الأم، أو المادة الأثيرية، فلا يكون الجواب إلاّ: ﴿بَلَى﴾.

إنك أنت الرّب الحق يا ربنا! وليس غيرك الذي يربّينا ويبلغنا الكمال، ونحن نشهد على هذا.

وهكذا تسجل هذه الشهادة، وتدوّن في الوجدان وتقرّ فيه بما لا يمكن محْوَه، وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذه الكتابة بقوله: "ما من مولود إلا يُولَد على الفطرة، فأَبَواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه".(١)

نعم، كل مولود يولد على الفطرة وهو مستعد وجدانياً للإيمان بالله سبحانه. فهو كالصحيفة البيضاء التي لم يُكتب عليها حرف بعدُ، وعلى استعداد لكتابة أنـــزه العبارات، أو أبيات شعر تحير العقول.

إنه يولد هكذا ولكن ماذا يحدث بعد ذلك؟ فمن أقرب الأقربين إليه من أب وأم وعم وخال ومن أبعدهم إليه يؤثر فيه، فيهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه. وإذا استعملنا التعابير المستعملة في وقتنا الحاضر فهم الذين يدفعونه إلى أحضان الشيوعية والماسونية أو الرأسمالية.. الخ. أي أنهم يؤثرون فيه حتى يصرفوه عن دين الله ويسوقوه إلى شتى السبل ويلوثوه.

إن كل صاحب فطرة سليمة يسمع في وجدانه صوت هذه الشهادة على ربوبيته تعالى، ونحن نستشعر بهذا الميثاق في أي صحيفة كان من صفحات وجودنا وكياننا، فنسمعه دوماً في أعمق أعماق أرواحنا، ومن هنا نَعُدّ الوجدان أحد الأسس الكلية الأربعة التي تُعرّفنا بخالقنا، ونقبله دليلاً قائماً وحده على وجوده سبحانه.

نعم، إن الكون كتاب: يعرّفنا بالله تعالى. وكذا القرآن الكريم كتاب: يعرفنا بالله تعالى. وكذا رسولنا الكريم ﷺ دليل ناطق: يعرفنا بالله تعالى.

وهناك كتاب صامت لا ينطق، ولا يكذب، إلاّ أن نداءه يرِد من الأعماق –مثلما يربط "كانت" (Kant) و"برجسون" (Bergson) وأمثالهم

---

(١) البخاري، الجنائز ٩٣؛ أبو داود، السنة ١٧؛ الترمذي، القدر ٥.

من الفلاسفة معرفة الله إلى ما وراء الكتب والأفكار والطبيعة- هذا الكتاب هو الوجدان، هذا الشاهد الصادق الذي رطّب لسانه بحلاوة وطلاوة كلمة: ﴿بلى﴾، وهو دليل واضح على الله سبحانه بحيث من تمكّن منه وأحسّه واستشعر به فلا حاجة له إلى دليل آخر، هذا الوجدان الذي لا يقر له قرار ولا يطمئن إلاّ بالله، فلا يجد السكينة والطمأنينة إلاّ بوجدانه الله تعالى كما هو في معناه.

وهكذا فكل مولود يولد ومعه هذا الشاهد.

ومن هنا فإننا نميل إلى فهم "من عرف نفسه فقد عرف ربه"[1] بهذا المعنى، أي من كان يعرف لغة وجدانه ولسانه فقد عرف ربّه. وقد عبّر عن ذلك "نيازي المصري"[2] شعراً بما معناه:

"كنت أصول وأجول الفيافي والقفار حاسراً حافياً باحثاً عنه وحده، ولكن ما أن رُفع الحجاب حتى شاهدت أن كل شيء مطوي في وجداني".

إن هذا الفكر قد بلغ الذروة فانتظم وانعقد بأبيات نيازي المصري.. نعم لقد قطع ملايين الأولياء مسافات لا نهاية لها بدلالة هذا الكتاب المشحون بالأسرار "الوجدان".

إن هذا الركن العظيم للطيفة الربانية، الوجدان، حالما ينبعث في قلبنا بهويته التي تحل كل معضلة، إذا بنا نشاهد الجنة تبرز وتهب نفحاتُها حتى ندرك ونشاهد جلوات الحضور الإلهي تتمثل فيه، ونستشعر في الوقت نفسه نفوراً من جهنم ومن كل ما يؤدي إليها من عمل. ويكبر هذا النفور يوماً بعد يوم، حتى يصبح الوجدان مرشداً ودليلاً يأخذ بأيدينا إلى كل زاوية من الكون ويُشهد أبصارنا المعاني المنطوية فيها.

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ٣٤٣/٢.

(٢) نيازي المصري: شاعر تركي صوفي (١٦١٨-١٦٩٤ م) ولد في قرية قريبة لولاية (ملاطْيه). أكمل دراسته في الأزهر الشريف، فلُقّب بـــ(المصري). له ديوان شعر ومؤلفات، تولّى الإرشاد في مدارس إستنبول العلمية. (المترجم)

إن كل إنسان ما إنْ يأتي إلى الدنيا إلاّ ومعه هذا الدليل الذي يُبلغه المعالي والذرى. ولكن الغافل الغارق في المادة، الباحث عن الله في المختبر، الذي يصمّ أذنه عن الوجدان، ولا يُذكي جذْوته ويفجّر طاقته حتى يَضمُر فسوف لا يعرف حقيقة هذا الدليل بلا شك ولا يستطيع أن يفيد منه الفائدة المرجوة.

والآية الكريمة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وضّحتها أحاديث شريفة كثيرة رواها ما يقرب من ثلاثين من أجلّة الصحابة الكرام منهم ساداتنا علي وأبو سعيد الخدري وسراقة بن مالك وأمنا عائشة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عمرو ﷺ. نذكر منها الحديث الآتي:

"قال عمرُ ﷺ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "إن الله خلق آدم ثم مسح ظهرَه بيمينه واستخرج منه ذريةً فقال: خلقتُ هؤلاء لِلجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريةً فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون". فقال رجل: يا رسول الله، ففيمَ العملُ؟ فقال رسول الله ﷺ: "إن الله عز وجل إذا خلق العبدَ للجنّة استعملَه بعمل أهل الجنة حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلَق العبدَ للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل النار فيدخله به النارَ..".[1]

وفي رواية أُبيّ بن كعب في قول الله عز وجل ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾... الآية. قال: "جَمَعهم فجعَلهم أرْواحا ثم صوَّرهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهدَ والميثاقَ وأَشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.. الخ" الحديث.[2]

٦) حديث آخر يروى عن عبد الله بن مسعود وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الشقيُّ مَن شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطنها".[3]

---

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٢٧٢/١؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٥٠٣/٢.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٥/٧.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ١٩٣/٧؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٧٦/٣.

نعم، إن السعيد والشقي هو من سعد أو شقي وهو بعدُ في بطن أمه. ولكن سبْق الكتاب هذا لا يحصل من غير إرادة الإنسان، وإلى أي جهة من الشقاوة أو السعادة تدفع به...

٧) وفي حديث متفق عليه للرسول الكريم ﷺ وهو الحوار الذي جرى بين سيدنا آدم عليه السلام وسيدنا موسى عليه السلام يتوضح فيه "سبق الكتاب" الذي نحن بصدده.

"عن طاوس، سمعتُ أبا هريرة عن النبي ﷺ قال: احتجَّ آدمُ وموسى، فقال له موسى: يا آدمُ أنت أبونا، خَيَّبْتَنا وأحرجتَنا من الجنة. قال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه وخَطَّ لك بيَده، أتلُومُني على أمرٍ قدَّره اللهُ عليَّ قبلَ أن يخلُقَني بأربعين سنةً؟ فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى، .. (ثلاثا)".[١]

وقد فسر السلف هذه المحاججة ووضحوها منذ القدم، نلخص هنا ما قالوه:

- حجّ آدم موسى لأنه أبوه.
- إن آدم وموسى صاحبا شريعة خاصة لكل منهما. فلربما لا يكون ذنباً لأحدهما ما هو ذنب للآخر، ولهذا حجّ آدم موسى.
- الجنة ليست دار تكليف، بخلاف الدنيا فهي دار تكليف. فآدم ليس مكلَّفاً في الجنة. بينما موسى حاججه بقاعدة تخص دار الدنيا. ولهذا قُبلت حجة آدم.
- أراد آدم أن يُفهم أن الخير والشر كلاهما من الله سبحانه، وهو الصواب، ولهذا حجّ موسى.

وأمثال هذه الإيضاحات والشروحات.[٢]

---

(١) البخاري، تفسير (٢٠) ٣٠/١، القدر ١١، الانبياء ٣١، التوحيد ٣٧؛ مسلم القدر ١٣.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ٢٠١/١٦-٢٠٢.

فإننا لا نناقش هذه التوجيهات في شرح الحديث الشريف المذكور لتوقيرنا أقوال السلف، فضلاً عن أن هذه التوجيهات ليست من جنس الأمور التي يمكن أن توزن وتقاس. إلاّ أننا لا نغادر هذا البحث دون الإشارة إلى حكمة دقيقة فيه؛ إذ الحديث يفهمنا مسألة دقيقة خفية من مسائل القدر وهي سبق الكتاب؛ أي كتابة كل شيء قبل وجوده، وفيه مقارنة بين حجة آدم وحجة موسى عليهما السلام، ثم تعقيب الرسول ﷺ عليها بقوله: "فحجّ آدمُ موسى"، ويكررها ثلاثاً. ولا يقول الرسول الكريم أن كلام موسى خطأ. بل يلفت النظر الى شمولية حجة آدم عليه السلام.

في القدر جهتان:

**الأولى**: جهة تقديره سبحانه وتعيينه لكل شيء بعلمه المحيط، أي الجهة المتوجهة إلى الله سبحانه.

**والثانية**: هي الجهة المتعلقة بإرادة الإنسان.

فسيدنا موسى عليه السلام قد أخذ بجهة القدر المتعلقة بإرادة الإنسان فحسب، لدى تقييمه إخراج آدم من الجنة، بينما آدم قد نظر إلى المسألة من زاوية الجهتين معاً، أي جهة تقدير الله سبحانه وجهة إرادة الإنسان، أي حاور من مقام الجمع بين الجهتين. وحيث إن وجهة نظره أشمل فكانت الحجة له على موسى عليهما السلام.

ومع أن إرادة الإنسان ليس لها وجود خارجي، فإنها مرجع للسيئات التي تُرتكب، حيث إنها شرط في خلق الله لها. فالآية الكريمة تعطينا الميزان في هذا: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ومَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩). ولكن هناك جانب آخر من المسألة وهو المشيئة الإلهية كما هو في الآية الكريمة ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾(الإنسان:٣٠).

نعم، إن الله سبحانه حاكم مطلق الحكم يجري حكمه وإرادته فوق جميع الإرادات، وما تطلقون عليه "إرادة الإنسان" ما هي إلاّ كقطرة صغيرة، لا

تظهر ماهيتها إذا اختلطت ببحر زاخر، فهي لا شيء بذاتها، إلاّ أن الله سبحانه قد أنشأ الكون على هذا اللاّشَيْء. ومن هنا كسبت "الإرادة" اللاشَيْء أهمية عظيمة بقدر الكون.

ولهذا ينبغي النظر إلى القدَر بهذه الشمولية. فهذه النظرة هي نظرة مَقام الجمْع. والآيات الكريمة الآتية توضح المسألة: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ ۞ وَمَا يَذْكُرُونَ اِلاَّ اَنْ يَشَآءَ اللهُ هُوَ اَهْلُ التَّقْوَى وَاَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾(المدثر: ٥٤-٥٦).

وعندما قيل للإمام الغزالي: "إننا لا نفعل بل نُريد.." أجاب: "حسَناً، فمن الذي أعطى الإرادة؟".

إننا مكلَّفون بلا شك، ونفعل وكأننا نحن الفاعلون، ولكن حدود هذا التكليف وكُنهه لا يعلمه حق العلم إلاّ الذي كلّفنا به. فلقد أعطى لنا شيئاً يمكن أن يكون مصدراً للخير أو الشر، فلا علمَ لنا حقاً أهذا الشيء بطانة أم وجه؟ ولكن يُشاهد أن أفخر الأقمشة يُنسج عليها ومن يملكه يتوّج بتاج الملوك. فهذا الشيء -من جهة- لا شيء، ومن جهة أخرى شيء عظيم. وهذا ما يقتضيه الجمع لدى النظر إلى المسألة. فمن تناول المسألة بجهتَيْها فقد جمع مسألة القدر، أما الذين لم يتناولوها بهذا النمط من التفكير فقد أصبحوا جبريّين أو معتزلة.

نعم، إن كتاباً قد سبق، ولكن بجنب هذا الكتاب المجهول بالنسبة لنا كتاب آخر معلق في أعناقنا، كيفيته مجهولة أيضاً بالنسبة لنا. إن خالق الخير والشر هو الله، ولكن لا يرضى بالشر، والخير يرضاه. مريد الشر هو الإنسان، بينما سبحانه لا يريد أن يرتكب الإنسان الشر، ولكن حينما يريد فهو ﷻ يخلقه.

٨) لنذكر أمثلة أخرى لتوضيح المسألة أكثر:

عندما نـــزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ

جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾(الأنبياء: ٩٨) اختلط الأمر على المشركين وحاروا، حيث الآية تخاطبهم قائلة: أنتم وما جعلتموه آلهة من أصنام، وما تعبدونه وتسندون إليه من مفاخر وبطولات فتنفخون فيه الانتصارات والإنجازات... أي كل ما تعبدون من دون الله، ليس إلاَّ حطب جهنم.

والآية خطاب موجَّه أولاً ومباشرة إلى الأصنام التي تملأ الكعبة المشرَّفة والبالغ عددها ثلاثمائة وستين صنماً. فالآية الكريمة تهدد مدار فخر المشركين واعتزازهم بنار جهنم. فلا شك أنهم ما كانوا ليبقوا ساكتين أمام هذا التهديد، ولا بد أن يقولوا شيئاً إزاء هذا التحدّي الواضح. ولكن لا حيلة لهم، إذ ما كانوا يجدون في أنفسهم قدرة على المعارضة. ثم خطر على بالهم عبد الله بن الزِّبَعْري[1] صاحب القدرة الفائقة في الإقناع والمنطق، مع التأكيد عليه أن يُسكت الرسول ﷺ قائلين: إن شرفنا وعزّنا بيدك!. وفعلاً فكَّر ابن الزبعرى بأن يداور الرسول ﷺ بلعبة منطقية، فقال له: تزعم أن الله أنـــزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ وقد عُبدت الشمس والقمر والملائكة وعُزَيْر وعيسى ابن مريم. كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنـــزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(الأنبياء: ١٠١).[2]

نعم، إن الذين لم تلوَّث ثيابهم بغبار الدنيا، بَعيدون عن جهنم، وإن الملائكة الذين لم يغفلوا عن الله طرفة عين بَعيدون عن جهنم.

فالمسيح عليه السلام روح الله وكلمته، الذي نفخ الحياة في الإنسانية وأحيا القلوب الميتة، وعزير عليه السلام ذلك النبي العظيم، بعيدان عن جهنم بُعد الأزل عن الأبد. فالذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً سيروْن وَبال أمرهم، لأن الكتاب

---

(١) وقد أسلم عبد الله بن الزبعري بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين، وأنشد شعراً معتذراً عن فعلته (تفسير القران العظيم لابن كثير، ٥/٣٧٦). (المترجم)

(٢) تفسير القران العظيم لابن كثير، ٥/٣٧٤-٣٧٥.

سبق للأنبياء والملائكة بالحسنى. وأن هذا التعبير القرآني "السبق بالحسنى" هو الجهة المتعلقة بموضوعنا.

**٩)** عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: أُغمي على عبد الرحمن بن عوف ثم أفاق فقال: ""أُغشي عليّ؟" قالوا نعم. قال: "صدقتم، إنه أتاني ملَكان هذه فقالا ألا تنطلق فنحاكمك إلى العزيز الأمين. فقال ملَك فإن هذا ممن كتبت له السعادة وهم في بطون أمهاتهم وسيمتّع الله بن بَنيه ما شاء الله. قال فعاش شهرا".[١]

والحديث الشريف الآتي -الذي سنحاول إيضاحه مفصلاً- يوضح الحادثة المذكورة آنفاً، أما الحديث الشريف فهو: "..فوالله إن أحدكم أو الرجلَ يعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينُه وبينها غيرُ باعٍ أو ذراعٍ فيَسْبِقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل الجنة فيدخُلُها، وإن الرجلَ لَيعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينَه وبينَها غيرُ ذراعٍ أو ذراعين فيسبقُ عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل النار فيدخُلها. قال آدم: إلا ذراعٌ".[٢]

ومعلوم أن عبد الرحمن بن عوف من العشرة المبشرين بالجنة. والذي يهمنا في الحادثة هو "سبق الكتاب".

**١٠)** يروي لنا عامر بن سعد بن أبي وقاص هذه الحادثة عن أبيه:

"بينما سعد ﷺ يمشي إذ مرّ برجل وهو يشتم علياً وطلحة والزبير ﷺ، فقال له سعد: إنّك تشتم أقواماً قد سبق لهم من الله ما سبق، والله لتكُفَنّ عن شتمهم أو لأدعُوَنَّ الله عز وجل عليك، قال: "يخوّفني كأنه نبي!" فقال سعد: اللّهم إن كان يشتم أقواماً قد سبق لهم منك ما سبق، فاجعله اليوم أنكالاً!" فجاءت بُختيّة (الأنثى من الجمل) فأفرج الناس لها فتخبطته، فرأيت

---

(١) الجامع لمعمر بن راشد، ١١/١١٢.

(٢) البخاري، القدر ٤١؛ مسلم، القدر ١.

الناس يتبعون سعداً يقولون: اســـتجاب الله لك يا أبا إسحاق!".[1]

نعم إن أولئك الصحابة الكرام قد سبقت لهم من الله الحسنى: فسيدنا علي ﷺ هو الحَيْدر الكرّار، وسيد الرجال، وصهر النبي ﷺ، وقد أثنى الرسول ﷺ عليه ثناءً جميلاً.

وطلحة بن عبيد الله ﷺ دافع عن الرسول ﷺ في أُحُد ويده مشلولة، حتى حظي بقول رسول الله ﷺ: "اسعوا لطلحة".[2]

والزبير بن العوام ﷺ وصفه الرسول الكريم ﷺ أنه حواريه قائلاً: "إن لِكلّ نبيّ حواريّا وإنّ حواريَّ الزبيْرُ بن العوام".[3]

وسعد بن أبي وقاص ﷺ الذي لم يتحمل الكلام البذيء الذي سمعه حول أولئك الأبرار هو ابن خال الرسول الكريم ﷺ، وقد دافع عنه في أُحُد وقال ﷺ بحقه: "ارم فداك أبي وأمي"[4] و "اللّهم استجب لسعد إذا دعاك".[5] ولهذا كان الناس يرهبون من دعاء سعد. فهؤلاء جميعاً قد سبقت لهم من الله الحسنى، أي أنهم يدخلون الجنة من باب الرحمة بلطف إلهي دون استئذان.

فالعبد مهما فعل فالكتاب يسبقه، له أو عليه، ولكن يجب ألاّ يفهم مِنْ "سبْق الكتاب" الإكراه والجبر الخارجي.

وسبق أن قلنا آنفاً إن الله سبحانه كتب مقدرات العبد وما سيفعله وفق علمه الأزلي، فالذين سبقت لهم منه الحسنى لا يختلف أمرهم عن هذا، حيث إن الله سبحانه يعلم ما يعملون بإرادتهم –حسنات كانت أم سيئات–. فقدّر سبحانه مثل هذه العاقبة، الحسنى لهم. فلا جرم أنه علاّم الغيوب، العالم

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١/١٤٠؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/١٥٤؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ٢/٤٦٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤/٣٤،٣٣.

(٣) البخاري، الجهاد ٤٠، ٤١، ١٣٥، فضائل الصحابة ١٣، المغازي ٢٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤٨.

(٤) البخاري، جهاد ٨٠؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤١،٤٢.

(٥) الترمذي، المناقب ٢٦.

بالجهر والخفي، بل علمه محيط بكل شيء قبل وجوده وبعده. ويظهر علمه هذا في سجلّ القدر، ثم يعمل العبد وفق ما جرى عليه الكتاب، ويسجل الملائكة هذه الأعمال، ثم يتجلى السجلان معاً ويُظهران التطابق التام.

اللّهم ألحقنا بالذين سبقت لهم منك الحسنى.. آمين.